

طريق السعادة . . .

إذا حملت مصباح التفتيش عن سعادتك . . في دياجير الشقاء ، فاعلم أنك
تطمس بذلك بصيص السعادة الذي ربما رآه — من عاش — في الظلام .

والخير والجمال . فكان يخيّل إلى أنه لا بد أن يكون من
هؤلاء القديسين الأطهار ، أو من أولئك الصوفيين الذين
استغرقوا أنفسهم في حب الذات ففقدوا فيها .

كنا نلتقي كثيراً فنتبادل الأفكار في جو لا يشوبه كدر..
يحدثني وأحدثه ، وألقى إليه برأىي ويلقى إلى برأيه ،
وعندها يتفاعل الرأيان في جو مشبع بالشوق إلى المعرفة
الخالصة لذاتها ، ثم تقوم من محراب البحث المقدس
شاكرين لآله الحق أن هدانا إلى مركب الرأيين . . هو
خلاصة ما نصل إليه ، وتفق عليه .

ولكنني عرفته بعد ذلك شخصاً آخر.. شخصاً قد لعبت
فيه أياد خفية ، واستبد به سلطان مجهول خفي على أمره
مدة لم تكن — للأسف — بقصيرة .

لقد حل الصمت الخفيف والاكتئاب الموحش محل تلك
الابتسامة الحلوة التي كانت تملأ شفثيه وأصبحت نظراته
شاردة تدل على القلق الدفين وتم عن الحزن العميق .

ولم يعد يهم بتلك الموضوعات التي كنا نثيرها من وقت
لآخر ، بل تراه وقد خيم عليه الصمت مطرق الرأس . . وقد
زاد ذلك اعوجاج ظهره كأنما يريد أن يقترب من الأرض
التي ربما وجد فيها خير حل لمشكلاته الجديدة . . .

حقاً إنها الجديدة ؟ بل وتختلف في طبيعتها كل الاختلاف
عن تلك المشكلات القديمة التي كنا لا نعدم أن نجد لها حلاً
مرضياً ولو إلى حين . . .

ما أبعد الفرق بين هذه وتلك . . فهذا المنطق وقد
فاض من لسانه وحل محله الاضطراب والارتعاش في حركات
الوجه واليد واللسان .

وكثيراً ما رأيت دموعه السخينة تنساب من مقلتيه

لا أستطيع أن أزعم أن كل ما سأحدثكم به من وحى
الخيال ، فقد أُلّف الواقع معظم أجزائه ، ولذلك فإنني لم ألق
أية صعوبة عندما استعرضت الماضي لأخرج هذه الحادثة
من طيات الشعور ، بعد أن حجبتها فترة من الزمن ليست
بقصيرة في أعمار الحوادث . . التي تتعاقب دون ما انقطاع ..
ويجب أن اعترف بأنني قد ضغطتها ضغطاً قاسياً ، لتتناسب
ومستلزمات المجلة من ناحية ، ولكي أتجنب بعض التفاصيل
التي أحب أن احتفظ بها لنفسى من ناحية أخرى .

طالما عرفت صديق ، هذا الذي سأحدثكم عنه ،
والابتسامة لا تفارق شفثيه ، ونظراته تدل بوضوح على
طيبة قلبه وصفاء سريرته .

يفكر بهدوء وينعم النظر في صمت ، حتى إذا ما واثته
المسكرة رفع رأسه ونظر إلى من خلف نظارته نظرة
ملؤها الطمأنينة . . ملؤها الرضى إلى الحل الذي ألهمته إياه
قريحته . تلك القريحة التي لا تفتأ تسعفه دائماً بأطيب الحلول .

عرفته محباً للوحدة والسكون . يلتجئ إليهما ليلأهما
بالنجوى الصامتة ، جائلاً بروحه المتجردة من ضباب المادة ،
في ملكوت العقل ، في وادي النور البعيد : حيث المعرفة
العميقة . . وترتد إليه من هناك بصور واضحة مما شاهدته
في ذلك العالم النورى العجيب . . عالم الانهائية . . عالم الخلود .

كان يعشق الأدب ، ويقرض الشعر ، ويحب الفلسفة ،
كأنه قد تجرد إلا من روحه الصافية الطاهرة النيرة ، التي
تشع صفاء ورقة ، وتفيض بالمنطق والحكمة .

ذلك هو حال صديق . . صديق الذي أحب المثل العليا
وآثرها ، منصرفاً عن كل ما يصرف النفس إلى غير الحق

اللتين تتأججان احمراراً لتسيل على وجنتيه اللتين برزت عظامهما من الهزال .. وكأن جسمه قد تحول في مدة وجيزة إلى شبه هيكل عظمي ، أفقده السهاد والقلق أبرز صفاته الحيوية .

حاولت ما وسعني الحول ، وجاهدت ما وسعني الجهد في أن أستكنه سره الدفين .. ولكن كل محاولاتي باءت بالفشل التام ، فكلمنا ازددت إلحاحاً في طلبي كلما ازداد عناداً وإصراراً في إخفائه ، بل وفي تعقيده .

و ذات يوم كنت على موعد معه في حديقة عامة .. وقد جلست في انتظاره على كرسي خشبي صغير أمام بركة صغيرة تتدفق فيها المياه .. وشعرت بالارتياح الشديد أمام هذه المناظر والأصوات الطبيعية ، فرحت في شبه غفوة قصيرة ، ولكني لم ألبث كثيراً حتى سمعت صوتاً معروفاً لدي وإن كان قد اختلف كثيراً . فقد خيل إلى أنه صادر من أعماق بئر سحيق ، فرفعت رأسي مذعوراً ، وإذا بي أرى ، ويا لهول ما رأيت — صديقي .. الجنة المتحركة ؟ — وهنا أرفع القلم قليلاً فقد شعرت بالقشعريرة تسري في بدني ، فلا أزال أهرج كلما استحضرت صورة ذهنية لهذا المشهد الرهيب لقد كان هندامه في غاية الفوضى وبدلاً من أنه كان في غاية الشجوب ..

أشار إلى بيد هزيلة مرتجفة وبصوت أشبه بالهمس قائلاً : تعال ..

فقممت خائفاً كمن أنذر بخطر جسم يقترب ، ومشيت قليلاً مع الليت الحى حتى اتخذنا مجلساً بعيداً عن الناس . وهناك ظل صامتا لمدة طويلة ، مطرقاً برأسه .. وبدأ لي أنه كان يحاول أن يجمع شتات فكره ، ثم رفع رأسه وصوب إلى نظرة خاصة فرحت لها وظننت أننا سنعود بعدها إلى سيرتنا الأولى .. ولكن هذه النظرة انطفأت من عينيه وانطفأ معها كل أمل في استعادة هنائه وسعادته .

وليس في استطاعتي أن أسرد ما جاء — بالتفصيل — في هذه الجلسة .. وإنما أقول أنه راح يسخر مني كثيراً .. وإن أنس لا أنس تلك النظرة التي رمقني بها والتي أثارت شفقتي كثيراً حين راح يسألني وهو يضرب بجمع يده على المنضدة : إذن .. ماهو طريق السعادة ؟ وهل السعادة عندك في إسعاد الروح أم في إسعاد البدن .

الحق أن المشكلة دقيقة وخاضعة لاختلاف الآراء التي كل منها قابل للمناقشة .. ولكن بدا لي أن أسحر منه نظير ما سخر مني فوجدتني أندفع لأقول : الحق أنني لأجد في قاموسي تحديداً دقيقاً لما تسميه بالسعادة ..

ولكن إذا كان لا بد أن أقول شيئاً عن السعادة ، فأعلم أنها تلك السويغات أو على الأقل هي تلك اللحظات التي فيها يتمتع الواحد منا بميوله وأهواءه وما تتطلبه أبسط فروض الحياة .. أما هذا الذي يحمل مصباح التفتيش عن سعادته ..

وقاطعتني بصرخة حادة انطلقت من فم الداوي ، وصاح كفاية .. هذه الثروة الكلامية ، إذن هكذا ترى طريق السعادة ..

ثم صمت لحظة ووقف قائلاً بصوت متحشرج .. لقد ظننت أن لي صديقاً كنفسى . أما الآن ... فالوداع .. وتركني في دهشة بالغة واضطراب شديد . لقد جف ريقى ، وخارت قواي ، فلم أقو على النهوض .

ومرت على بعدها بضعة أيام لا شغل لي إلا التفكير فيه واستعراض تاريخه : ماضيه وحاضره .. وومضت في ذهني فكرة وذلك عندما تذكرت قوله في اجتماعنا الأخير « إننا لنجبن عن مواجهة السعادة الدائمة .. فنتركها دائماً بيد القدر .. » رنت هذه العبارة في أذني رنة ذات معنى خطير ، وأدركت الطريق الذي سيخوضه صديقي .. وتصورت نوع العمل الذي سيقدم عليه في سبيل سعادته .. وندمت على ترك صديقي الذي ذهب مني وهو يتحدى القدر ، وأسرعت إلى منزله لكي أؤدي واجب الصداقة السامى .. في إنقاذ نفس ضلت طريقها السوى ، وآثرت أن تسير متخبطة حيرى وقد أوشكت أن تشيع بغضب الخالق ..

وهناك — في منزله — شعرت أنني قد تأخرت .. كثيراً .. لقد اختفى — ويا للحسرة — منذ أيام . اختفى وتركني للقدر ..

أما هو فقد ذهب ليجث عن سعادته .. في أعماق النيل ..

محمود توفيق

(قسم الفلسفة — كلية الآداب)